فقه بناء الدول وضرورته لحياة الإنسان

فضيلة الشيخ /نصرت رمضان

مدير عام الجمعية الثقافية والخيرية بمقدونيا

مقدونيا الشمالية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أصحاب المعالي والسعادة العلماء الأفاضل رئيس الجلسة المحترم، الحضور الكرِيم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أحمد الله تعالى على نعمة الاجتماع والوفاق، وأتوجه بالشكر الجزيل لله تبارك وتعالى على ما مَنَّ به من انعقاد هذا المؤتمر الثلاثين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ثم أشكر معالي وزير الأوقاف فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد مختار جمعة، وأعضاء فريق اللجنة العلمية في وزارة الأوقاف على حسن ترتيب وانتظام انعقاد هذا المؤتمر لسنوات متتالية، وبعد..،

فإنه ليشرفني ويسعدني هنا أمامكم أن أتوجه إليكم بهذه الكلمة القصيرة حول هذا العنوان الرائع: فقه بناء الدول.. رؤية فقهية عصرية، حيث يمتاز هذا العنوان بأنه يمس الواقع المعاصر، فهو يعالج كثيرًا من المشاكل ويجيب على كثير من التساؤلات، فإن هذه المؤتمرات تشكل مدرسة لنا، نتخرج منها حاملين خطاب البناء لا الهدم، ونتعلم الأساليب والطرق والوسائل لفقه بناء الدول، وكيف نضع إستراتيجيات بناء الدولة، ونحن في أمس الحاجة إلى مثل هذه الأطروحات التي تأتي في ظروف وفي وَقتٍ تحتاج جَمِيع المُجْتَمَعَات إلى مِثلِها، وذلِكَ لافتقاد كثِير مِنَ الناس مثل هذه المفاهيم بالمعنى الصحيح، وافتقادهم للأحكام الشرعية التي جاءت لترسيخ وتكريس مفهوم بناء الدول، وأيضًا فتح جميع المسائل التي تعين

على بقاء الدول قوية ذات هيبة ومنعة.

إن الدولة مفهوم قديم وليست مفهومًا جديدًا، والدولة تعني ما يجمع الإنسان على أرض بنظام يحكمه، ولا شك أن تنظيم الدولة ضرورة إنسانية، لتصلح حالة الناس؛ ولذلك ما جاء كتاب من كتب الله تعالى ولا جاء رسول من رسل الله تعالى إلا ونجد حرصهم ودعوتهم للشرِيعة التي تحكم الناس في علاقاتهم مع بعضهم البعض، وفي علاقاتهم مع الآخرِين، وهذا من مقتضيات العقل، كما قال شاعر العرب:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذَا جهالهم سادوا.

فقه بناء الدول مَفْهُومٌ ضروري لِحَيَاةِ الإنسان، وقِيام الدول في الإسلام يقوم على ترابط بين الحاكم والمحكوم في فهم الغاية التي خلقنا من أجلها، والنصح له وتقديم النصح بالأسلوب الذي يجمع ولا يفرق، قال رسول الله ﷺ : "إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط" [1].

وفيما يتعلق بقضية فقه بناء الدول ليس هناك أحسن من بيان النبي ﷺ في وضعه القواعد العامة التي تعين على بناء الدول، ولا يخفى على الجميع- ونحن بين أساتذة ومشايخ وفضلاء وأكاديميين- ما يتعلق ببناء الدول و قيمتها عندنا في الإسلام، حيث كان الناس موزعين متفرقين فجمعهم الله عز وجل بِهذا النبي الكريم ﷺ ولم يَكن اجتماعهم هكذا مصادفة، وإنما بني على جملة من الأسس والقواعد التي بنت هذه الدول حتى أَصبحت بمثل هذه المكانة.

لقد جاء الإسلام العظيم بتطوير العقل الإنساني ومفاهيمه وإدراكاته؛ ليخرجه من ضيق الأفق إلى سعة الفهم والإدراك، لقد ربى فقه الشريعة الإسلامية أبناءه لبناء الدول، ولينشئ حضارة عظيمة، رباهم على سعة المفاهيم لا على ضيقها، فهذا مفهوم العبادة، ليس بالمفهوم الضيق الذي يشمل الشعائر التعبدية فحسب، بل هو مفهوم عام يشمل كل ما يحب الله ويرضاه، يقول أهل العلم: إن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة؛ فالسعي في البناء والتربية ومصالح الناس عبادة إلى غير ذلك من

مفاهيم، مثل: مفاهيم الخير والصلاح والبر، فهي مفاهيم تتسع لعدة معان ترقى بها الدول وتتقدم .

واليوم نعاني من ضيق الفهم لدى الجماعات المتطرفة لمثل هذه المصطلحات العظيمة التي جاءت في الشريعة الإسلامية، فهذا مصطلح البر الذي يشمل الإيمان، ويشمل العمل الصالح بأنواعه، ومن ذلك النفقة، ومن ذلك السعي في حاجة المحتاج، ومن ذلك أداء الأمانة في العمل، يقول تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢]، ومصطلح الخَيرَ الذي يتسع مفهومه؛ ليشمل كل خير، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٣]، ومصطلح الصّلاح، فالعبد الصالح هو الذي قام بِحق نفسه وقام بِحقوق الله وحقوق العباد، فالذي يبني وينفع الناس عبد صالح إذا كان قائمًا بِحق الله وحق الناس، والذي يؤدي الأمانة في العمل، ويبذل عمره في ذلك لبناء الحضارة؛ ليرفع من شأن الإسلام والمسلمين، وليكون ساعيًا لبني الإنسان فيما ينفعهم هذا يدخل في مفهوم الصلاح.

لا أريد أن أستأثر بالحديث وأعلم أن من سبقني تكلم في مثل هذه الموضوعات، لا سيما وأن عناوين البحوث كلها تصب في هذا الموضوع العظيم وتخدمه.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يحفظ جمهورية مصر العربية قيادتها وشعبها وأن يديم عليكم الأمن والأمان و الاستقرار، ودمتم في رعاية الله وحفظه، والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته.

الهوامش :

(١) سنن أبي داود، باب في تنزيل الناس منازلهم، حديث رقم ٤٨٤٣.

(٢) آل عمران: ٩٢.

(٣) الحج: ٧٧.